٣- باب الخوف من الشرك

وَقَولِ اللهِ - عزَّ وجَلَّ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] الآيَةَ.

وَقالَ الخَلِيلُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وَفِي الحَدِيْثِ: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»، فَسُئِلَ عَنْهُ، فَقالَ: «**الرِّيَاءُ**»(١).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**»(٢). رَواهُ البُخارِيُّ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**»(٣).

○○○

(١) **حسن**: أخرجه أحمد في «المسند» (٣٨٤) وفي مواضع أخرى، والبيهقي في «الشعب» (٦٤١٢)، وحسَّنه الأرناؤوط.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٤٩٧) وفي مواضع أخرى، واللفظ له، ومسلم (٩٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٣).

الشرح:

ذكر الشيخ في هذا الباب آيتين وثلاثة أحاديث.

والكلام عليه في ثلاثة فصول:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب الأول منزلة التوحيد، ثم ذكر في الباب الثاني فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب، ثم ذكر في الباب الثالث تحقيق التوحيد والأجر المترتب عليه، ناسب أن يذكر ضِدَّه وهو الشرك؛ لأجل أن يحذره المؤمن ويخافه على نفسه.

ومن لوازم تحقيق التوحيد: الخوفُ من الشرك بأنواعه؛ فهو أعظم شرٍّ يمكن أن يصيب إنسانا، وقد قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»(١).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ أَمِنَ اللهَ عَلَى دِينِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ سَلَبَهُ إِيَّاهُ»(٢).

وكما قال القائل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ

وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ النَاسِ، يقعْ فيهِ(٣)

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٦٠٦، و٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) «البدع» لابن وضاح (٢/ ٩٦).

(٣) ينظر: «يتيمة الدهر» لأبي منصور الثعالبي (١/ ٨٤).

ومن المفاهيم الخاطئة عند كثير من الناس استبعادُ الوقوع في الشرك، ولذا لو حدثته بهذا لانتفض، وقال: هل رأيتنا نطوف على قبر، أو نذبح للجن، أو نسجد لصنم؟! نحن موحدون، والحمد لله.

وكأنَّ الشرك محصور في هذه المسائل؟!

ألم يخبر النبي ﷺ بشدة خفاء الشرك؟!

ألم يخفْهُ على خير الناسِ؟!

ألم يَدْعُ الخليل إبراهيم ﷺ، وهو شيخ الموحدين، ربه أن يُجَنِّبَه عبادة الأصنام؟!

ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

احتوى هذا الباب على عدد من المباحث التأصيلية المهمة في موضوع الشرك، وسنعرض فيما يلي - بإذن الله تعالى - لأهم تلك المباحث.

المبحث الأول: معنى الشرك لغة، واصطلاحا:

الشرك في اللُّغة[1]: الاقتران وعدم الانفراد، ومنه الشَّرِكة؛ لأنه اجتمع فيها أكثر من واحد. ومن ذلك قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ٣٢﴾ [طه: ٣٢]، أي: اجعله معي شريكا، فلا أكون منفردا بهذا الأمر.

وفي الاصطلاح: عُرِّف بتعريفات كثيرة متقاربة.

ويمكن أن يُقال: الشِّرك هو: أن يُجعَل للهِ ندٌّ فيما يجب له أو يختص به.

فالشرك اتخاذ النِّدِّ والشريك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد يقع باعتقاد القلب، أو بقول اللسان، أو بعمل الجوارح.

فمثال الاعتقاد: أن يعتقد أن مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلها يستحق العبادة، أو أن فلانا من الناس بيده الضر والنفع.

---

(١) ينظر: «الصحاح» (٤/١٥٩٣)، و«لسان العرب» (١٠/ ٤٤٨)، و«تاج العروس» (٢٧/٢٢٣).

ومثال القول: أن يحلف بغير الله، أو يدعو غيره.

ومثال الفعل: أن يسجد للقبر، أو يذبح للمخلوق.

○○○

المبحث الثاني: هل الأصل في الإنسان التوحيد أم الشرك؟

لا ريب أنَّ الأصل في الإنسان التوحيد، ويدل على ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الخلقَ حنفاء موحدين في أصل فطرتهم، ثم عرضت لهم انحرافات أفسدت لهم هذا الأصل وحرفتهم إلى الشرك، ويدل على ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»[(١)].

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٣٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة»، تحت حديث رقم: (٣٢٨٩).

فقد كان الناس على الهُدى والتوحيد، ثم اختلفوا وانحرفوا إلى الشرك، فبعث الله النبيين، وكان أول من بُعِث هو نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**» ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿**فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[1].

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»[2].

وقوله ﷺ: «**اجْتَالَتْهُمْ**»: يعني استخفَّتهم؛ فصرفتهم عن دينهم.

فهذه الأدلة السابقة صريحة في تقرير هذا الأصل: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق العباد على الحنيفية، وهي: عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، وأن الشياطين صرفتهم عن ذلك، وأوقعتهم في الشرك. فلما اختلفوا بعث الله النبيين والرسل ليبينوا لهم الحق، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

فهذا هو القول الفصل في هذه المسألة، ولا التفات إلى ما سواه من الآراء والنظريات التي تزعُم أن الأصل هو الوثنية والخرافة، وأن التوحيد مرحلة من مراحل التطور الديني. وقد تَبَنَّى ذلك بعض نظريات علمي النفس والاجتماع،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وهو ما يُعبَّر عنه بـ«المذهب الطبيعي» أو «المذهب الروحي» و«النظرية الفرويدية» المنسوبة إلى سيغموند فرويد، والتي تأثر بها بعض المفكرين الإسلاميين!

○○○

المبحث الثالث: أسباب وقوع الشرك في بني آدم، وكيف كان مبدؤه؟

أولا: أسباب الوقوع في الشِّرك:

إن المتأمل في تاريخ تلوُّث الفِطَر البشرية بالشرك وانحرافها عن التوحيد، ليجد أن هناك أسبابا واضحة أدت إلى الوقوع فيه، لعل من أهمها:

١- الغلو:

وقد أفرد له المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من باب[1]، وسيأتي تفصيل الحديث عنه هناك، إن شاء الله تعالى.

٢- الجهل بقَدْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

ولهذا تكرر في القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١، والزمر: ٦٧]؛ لأنَّ من قَدَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حق قدره؛ لا يُتصور أن يجعلَ معه شريكا ونِدًّا.

---

(١) ينظر: «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»، و«باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله».

ولهذا - أيضا - يُذكَرُ الجهلُ في مقام التنفير من الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

٣- تعظيم القبور، والعُكوف عندها:

وقد أفرد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه المسألة أكثر من باب - أيضا -، وسيأتي تفصيل الحديث عنها في مواضعها، إن شاء الله تعالى(١).

٤- التقليد:

ويُراد به التقليد المذموم؛ وهو: قبول قول الغير، من غير حجة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا السبب، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

وقال قوم صالح له: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

وقال قوم إبراهيم له: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤].

---

(١) ينظر: «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح»، و«باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله».

وقال مشركو العرب لمحمد ﷺ لما دعاهم لكلمة التوحيد: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧**﴾ [ص: ٧].

فهذه الآيات - وما في معناها - تدلُّ على أثر تقليد الآباء والقُدَماء في ترك التوحيد، والبقاء على التنديد.

وفي قصة أبي طالب عم النبي ﷺ لما حضرته الوفاة، فأتاه النبي ﷺ وعرض عليه كلمة التوحيد: «يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، لكن رفقاء السوء: أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية - قبل أن يُسلم -، ثبَّطاه وكانا يلقنانِه: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟![1].

عظَّما الأمر عليه، هذا شيء كان عليه أبوك، كيف ترغب عنه؟! سِر على ما سار عليه، ومُت على ما مات عليه. ولم يزل في تلك الساعة العصيبة يتوارد عليه الحق والباطل، حتى مات على ملة عبد المطلب!.

وقد كان في قرارة نفسه يقر بصدق النبي ﷺ وهو القائل:

وعَرَضتَ دِيناً قد عَرَفْتُ بأنَّهُ ... من خيرِ أَدْيانِ البَرِيَّةِ دِيْنا

لولا المَلامَةُ أو حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدتَّني سَمْحًا بذاكَ مُبِينًا[2]

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤٧٧٢) وأطرافه، وصحيح مسلم (٢٤).

(٢) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» ص١٥٥.

٥- التصوير:

وقد أفرد له الشيخُ بابا خاصا في أواخر الكتاب.

ثانيا: مبدأ الشِّرك:

أول شرك وقع في تاريخ البشرية كان سببُه الغلوَ والتصوير، كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾**﴾ [نوح: ٢٣]، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ، عُبِدَتْ»(١).

وقال محمد بن قيس: «كَانُوا قَوْمًا صَالِحِيْنَ مِنْ بَنَى آدَمَ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاهُمْ كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَرْنَاهُمْ، فَصَوَّرُوهُمْ. فَلَمَّا مَاتُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرَ؛ فَعَبَدُوهُمْ»(٢).

---

(١) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٣٩).

فهذا تاريخ بدء الشرك في البشرية، كان بسبب التصوير والغُلو، وكان الباعثُ الأول: تذكُّرَهم والنشاطَ للعبادة عند رؤية صُوَرِهم، فانظر إلى مكر الشيطان وخطواته! ثم جاء الجيل الذي يليه فوقعوا في عبادتهم.

وهذا يفيد طالب العلم: أن يكون حارسا أمينا على حمى التوحيد وأسواره، لا ينخدع بزُخرف قول شياطين الإنس، ولا بوسوسة شياطين الجن في تهوين هذه المداخل والوسائل، وكما قيل: الدفع أهون من الرَّفْع.

ثم استمر الشرك بعد قوم نوح في عاد وثمود، وأقوام إبراهيم ولوط ويوسف وشعيب وموسى وعيسى، وكان الله - عز وجل - يبعث في هذه الأمم رسُلا يدعون أقوامهم، ولهذا حين نقرأ القرآن ونتدبره نجد أن دعوة الأنبياء واحدة، كل نبي يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] ومواضع أخرى.

أمَّا العرب: فكانوا قبل البعثة المحمدية على الحنيفِيَّة ملة إبراهيم ﷺ، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ النَّاسُ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ عَلَى الإِسْلامِ ، فَكَانَ الشَّيْطَانُ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِالشَّيْءِ، يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّهُمْ عَنِ الإِسْلامِ، حَتَّى أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ فِي التَّلْبِيَةِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إلاَّ شَرِيكٌ هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ! قَالَ: فَمَا زَالَ حَتَّى أَخْرَجَهُمْ عَنِ الإِسْلامِ إِلَى الشِّرْكِ»[1].

(١) «مسند البزار» (٧١٨٨).

وكان أول من غيَّر دين إبراهيم: عمرو بن لحي الخُزاعي؛ وجد الأصنام التي كانت تُعْبَد زمنَ نوح وإدريس، وهي وَدٌّ وسُواع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، فحملها إلى مكة ودعا إلى عبادتها، فانتشرت بسبب ذلك عبادة الأصنام في العرب. وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنه رآه يجر أمعاءه في النار(١).

وكان من العرب من يعبد الجن، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

ومن عجائبهم ما ذكر أبو رجاء العُطاردي في قوله: «كُنَّا نَعْبُدُ الحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ»(٢).

○○○

المبحث الرابع: وقوع الشرك في هذه الأمة:

أنكر البعضُ إمكان وقوع هذه الأمة في الشرك بعد أن هداها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الإسلام، والحق أنَّ وقوع الشرك في الأمة أمر دلت عليه النصوص الشرعية،

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (كتاب المناقب، باب قصة خزاعة)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٦). وينظر، أيضا: «كتاب الأصنام» للكلبي. و«المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي؛ فقد توسع في هذه المسألة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣٧٦).

وسيأتي – إن شاء الله تعالى – بيانُه بأدلته مصحوبا بالجواب عن الشبهات حوله في باب «ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان».

○○○

المبحث الخامس: خطر الشرك، وضرورة الخوف منه:

وهذا المبحث موافق لترجمة الباب «باب الخوف من الشرك». ولا ريب في أنَّ الشِّرك أعظم خطر يمكن أن يعرِض للمسلم. ومما يشهد لذلك:

أولا: أن الشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبدا، إلا بالتوبة منه:

وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨]، ونحوها.

ثانيا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حرَّم الجنة على المشرك، وجعل مأواه النار:

قال الله – تعالى –، حاكيا قول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ**﴾ [المائدة: ٧٢].

ثالثا: أن عمل المشرك حابط، لا ينتفع به:

ويشهد لذلك قول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿**وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٨].

رابعا: أن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ خاف الشرك على نفسه، فمن دونه أولى:

قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم:٣٥]. يقول هذا وهو خليل الرحمن، ومَن حطَّم الأصنام بيده، وأفضل الرسل بعد محمد ﷺ!.

خامسا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف الشرك وأهله بالنجاسة:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]، وهي نجاسة معنوية، كما هو مقرَّر في كتب التفسير والفقه.

سادسا: أنه أخوف ما خافه الرسول ﷺ علينا:

فعن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»(١). فهذا الحديث يدل على أن الشرك الأصغر أخوف المخوفات، وهذا يدعو المؤمن للخوف والحذر منه، ومن الشرك الأكبر من باب أولى.

سابعا: أن الشرك مُذهِب للأمن، جالب للخوف والفزع:

قال الله - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]. وقد سبق الكلام على معنى الآية في «باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب».

○○○

(١) تقدَّم تخريجه.

المبحث السادس: أقسام الشرك:

يُقَسَّم الشرك بعدة اعتبارات؛ أشهرها اعتباران:

- **الأول: تقسيمه باعتبار نوعه وأثره إلى شرك أكبر وأصغر:**

ويندرج تحت كلٍّ قسم من هذين نوعان:

فالقسم الأول (الشرك الأكبر) ينقسم إلى:

١- **شرك أكبر جَلِي**: مثل السجود للأصنام.

٢- **شرك أكبر خَفِي**: ومثاله عقائد المنافقين الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الشرك، وما يسمِّيه العلماء بـ«خوف السر»، وسيأتي الكلام عليه في بابه، إن شاء الله تعالى.

والقسم الثاني (الشرك الأصغر) ينقسم إلى:

١- **شرك أصغر جَلِي**: كالحلف بغير الله.

٢- **شرك أصغر خَفِي**: كالرِّياء.

- **والاعتبار الثاني: تقسيم الشرك باعتبار أنواع التوحيد:**

وينقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الشرك في الألوهية: وهو الشرك في العِبادة، بصرف نوع من أنواعها لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كالدعاء والسجود والذبح وغيرها.

القسم الثاني: الشرك في الربوبية: وهو جعل شريك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أفعاله؛ كالخلق والرزق والتدبير. كحال النَّمرود الذي قال: «أَنَا أُحْيِي وَأُمِيْتُ»[1]، وحال من يعتقد أنَّ أحدًا من المخلوقين يؤثر في حركة الأجسام العُلوية، أو أنَّ بيده الضر والنفع، وحال كثير من الرافضة الذين يعتقدون في الأئمة علم الغيب! فهذا كلُّه شرك في الربوبية.

القسم الثالث: الشرك في الأسماء والصفات: وهو اعتقاد مثيل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يختص به من الأسماء والصفات. كحال من يعتقد في الأولياء القدرة على السمع على القرب والبُعدِ، وحال من شبَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلقه، فقال: يد الله كيد فلان، أو سمعه كسمع كذا وكذا.

وكذا تسمية الآلهة الباطلة بأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كتسمية المشركين آلهتهم بأسماء مشتقة من أسماء الله - تعالى -، قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾**﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن إلحادهم في أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنهم سمَّوا بها أوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فاشتقوا اللات من الله، والعزَّى من العزيز، ومناة من المنَّان[2].

○○○

(١) ينظر تفسير الآية الثامنة والخمسين بعد المئتين، من سورة البقرة.

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٣/ ٦١).

المبحث السابع: متى يُسمَّى الفعل شركا[1]؟

يُوصف الفعل بأنَّه «شرك» إذا تحقَّق فيه أحد الضوابط التالية:

الضابط الأول: تسمية الشرع له بأنه شِّرك:

فكل ما سماه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو رسوله ﷺ شركا - من قولٍ أو فعل أو اعتقاد -، فهو شرك.

الضابط الثاني: أن يكون فيه تشبيه للمخلوق بالخالق، فيما هو من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المشرِك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية؛ فإن من خصائص الإلهية: التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبَّهه بالخالق»[2].

الضابط الثالث: صرف شيء من العبادات؛ تقربا لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

فمن صرف شيئا من العِبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقد وقع في الشرك، لا ريب في ذلك. وهذا لُبُّ هذا الكتاب وموضوعُه الرئيس.

---

(١) ينظر: «الشرك بالله» لماجد شبالة ص٢٥٧.

(٢) «الداء والدواء» ص١٣٦.

الضابط الرابع: إثبات وسائط بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبين خلقه:

فمن جعل بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبين عباده وسائطَ تُرفع إليهم الحوائج، فقد وقع في الشرك الصريح الذي كان عليه أهل الجاهلية الأولى، ولو ادَّعى أنَّه ما فعل ذلك إلا ليكونوا شفعاء له عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وسيأتي شرح هذه الضوابط بأدلتها وأمثلتها خلال شرح أبواب الكتاب، إن شاء الله تعالى.

* * *

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومناسبة الآية للباب واضحة؛ لأنَّه إذا كان الشِّرك لا يغفره الله - سبحانه -؛ فهذا مما يوجب الخوف والحذر منه.

ooo

النَّص الثاني: قال الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ومناسبة الآية للباب: أنَّه إذا كان الخليل ﷺ إمامُ الحنفاء، وشيخُ الموحدين، الذي جعله الله أمة وحده، واصطفاه بخُلَّتِه، وكسَّر الأصنام بيده، يخاف أن يقع في الشرك، فكيف بمن هو دونه بمراتب؟!.

قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم»(١).

وذكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في سورة الأنعام ثمانيةَ عشَرَ نبيا، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: ٨٨].

---

(١) «الوسيط في تفسير القرآن المجيد»، للواحدي (٣/ ٣٣).

فائدة:

يتعلَّق بقوله تعالى: ﴿**وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ**﴾: بيانُ معنى الصنم، والفرق بينه وبين الوثن. **فالصَّنم**: ما كان مُصَوَّرا على أي صورة. **والوثن**: ما عُبِد من دون الله على أي شكل كان، كالشجر والحجر.

والصنم قد يسمى وثنا، كما قال الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا**﴾ [العنكبوت:١٧]. كما أن القبور تسمَّى أوثانا، وفي الحديث: «**اللهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا**»(١)، فالوثن أعم.

○○○

النَّص الثالث: حديث: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»، فسُئِلَ عنه، فقال: «**الرِّياءُ**»(٢).

إذا كان النبي ﷺ يخاف هذا الشرك على أصحابه الذين هم أفضل القرون عِلما وعملا، فكيف بمن بعدهم؟! لا شك أن هذا يوجب شِدَّة الخوف من الوقوع في هذا الشرك، فضلا عن ما هو أعظم منه.

وقد أفرد المؤلف للرياء بابا خاصا.

○○○

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في المسند (٧٣٥٨)، وأبو يعلى (٦٦٨١) بلفظ: «**لَا تَجْعَلُنَّ قَبْرِي وَثَنًا**»، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي. وأصله في الصحيحين بدون موضع الشاهد.

(٢) تقدَّم تخريجه.

النص الرابع: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**»(١).

النِّدُّ: المِثل والشبيه. وقوله ﷺ: «**يَدْعُو**»: يشمل دعاء العبادة والمسألة، وسيأتي - بإذن الله تعالى - بيان المقصود بهما.

ولا ريب أنَّ كل مسلم - بل كل عاقل - يرجو النجاة والفِكاك مِن النار، فمن أيقن في قول النبي ﷺ هذا خاف وتباعد عن أسباب دخولها، التي أعظمها الإشراك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

○○○

النص الخامس: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**»(٢).

فيه الحكم بدخول النار لمن مات مشركا.

وقوله ﷺ: «**شَيْئًا**»: نكرة في سياق الشرط، فتعُمُّ.

لكن هل يلزم من دخول المشرك النار أن يخلد فيها؟

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

الجواب: هذا بحسب نوع الشِّرك؛ فقد دلَّت النصوص على أنَّ الشرك إن كان أصغرَ، لم يلزم منه خلود صاحبه في النار. وإن كان شركا أكبر، لزم منه الخلود في النار، عياذا بالله تعالى.

ومن مات غير مشرك فدخوله الجنة مقطوع به. وإن كان مذنبا فهو تحت المشيئة، إن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عفا عنه فدخل الجنة بغير عذاب، وإن شاء عذَّبه، ثم يكون مآله إلى الجنَّة.

قال الشيخ ابن قاسم: «واقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم، فالمراد: من مات حال كونه مؤمنا بجميع ما يجب الإيمان به إجمالا في الإجمالي، وتفصيلا في التفصيلي»[1].

* * *

(١) «حاشية كتاب التوحيد» ص٥٣.